أيــوب

عليه السلام

تتجاور فى رحاب الكون، منذ وجد الكون، ظواهر الخير والشر والحس الأخلاقى، والقبح الأخلاقى، كما يتجاور النعيم والشقاء، والسعادة والبؤس.

وقد يرى الإنسان من خلال التاريخ مظهرًا بلغ الذروة فى الوفاء وفى الصبر فيسعد برؤية نموذج للفضيلة قد تحقق بالفعل.

ـ وقد يرى الإنسان من خلال التاريخ مظاهر للغدر والخيانة، وقعت هنا أو هناك، فيبتئس ويحزن.

وفى التاريخ، وهو يحدثنا عما يجرى فى رحاب الكون، عظة وعبرة وذكرى.

نقول هذا بمناسبة حديثنا عن قصة أيوب صلوات الله وسلامه

عليه، والقرآن الكريم يحدثنا عن أيوب عليه السلام فى عدة من السور، فيقول فى سورة الأنبياء:

﴿وأيوب إذ نادى ربه أنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾ (الأنبياء آية: ٨٣).

وفى هذه الآية الكريمة لا يطلب أيوب شيئًا بصيغة الطلب الصريحة، وإنما يتجه إلى الله معلنًا حالته، ذاكرًا أنه مسه الضر، ثم يخاطب الله سبحانه بصفة من صفاته هى أنه سبحانه أرحم الراحمين، ولا شك أن صورة الالتجاء إلى الله على هذه الكيفية إنما هى صورة من صور الأدب العالى فى الدعاء.

وما من شك فى أن أيوب عليه السلام لم يتجه إلى الله بهذا النداء إلا وقد بلغ من الاضطرار إلى الحد الأعلى، والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿أمن يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء﴾ (النمل آية: ٦٢).

ومن أجل التجائه إلى الله واضطراره قال الله سبحانه وتعالى مبينًا نتيجة التجائه إليه:

﴿فاستجبنا له، فكشفنا ما به من ضر، وآتيناه أهله ومثلهم معهم رحمة من عندنا وذكرى للعابدين﴾ (الأنبياء آية: ٨٤).

ما هى قصة أيوب؟

لقد آتاه الله ثراءً عريضًا، ونعمة موفورة، وكان ثراؤه ألوانًا عدة، كان عنده من الثروة الزراعية متمثلة فى المزارع والحدائق والرياض الشىء الكثير. ويتحدث الإمام ابن كثير عن الأراضى المتسعة بأرض الثنية من أرض صوران التى كانت له ثم يذكر عن ابن عساكر أنها كلها كانت له.

وكانت له أموال من الأنعام والمواشى لا تكاد تعد.

ومنحه الله نعمة القوة والصحة والوسامة، ووهبه زوجة يتمثل فيها كل ما يتطلبه الرجل من الزوجة من خلق كريم، ومن رقة وجمال، ولم يبطر أيوب ولم يتكبر، إن النعمة لم تبطره، وإن الغنى لم ينحرف به، لم يكن من هذا النوع الذى قال الله فيه:

﴿إن الإنسان ليطغى، أن رآه استغنى﴾.

ولم يكن من هذا النوع الذى «يدع اليتيم، ولا يحض على طعام المسكين» ذلك النوع الذى يصفه الله بأنه يكذب بالدين. كلا، لقد كان صابرًا على النعمة والصبر على النعمة هو شكر لها.

ومن شكرها ومن الصبر عليها أن يؤدى الإنسان حق الله فيها، ولقد كان أيوب يؤدى حق الله فى النعمة: كان يطعم الجائع، ويكسو العارى، وينجد ذا الحاجة الملهوف.

وهذا الصبر على النعمة - وقد يبتلى بعض الناس بالنعم - والصبر فيما بعد على الشدة والمرض هما اللذان كانا السبب فى اتخاذ صبر أيوب مثلاً،

والله سبحانه وتعالى يقول:

﴿إنا وجدناه صابرًا، نعم العبد إنه أواب﴾.

منح الله أيوب عليه السلام الثراء العريض، والنعمة الموفورة، والصحة والوسامة.

ثم أخذ المال يتناقص، وأخذت النعمة فى الزوال، وضعفت الصحة شيئًا فشيئًا، ثم جاءت لحظة من اللحظات وقد زال تمامًا ذلك كله، جاءت وقد باع أيوب آخر ما عنده مما يمتلك، وأنفق أيوب آخر ما يقتنى، وأصبح من الفقر بحيث لا يجد ما يسد جوعه، ومن المرض بحيث لا يستطيع أن يعمل.

وأشفق عليه فى المبدأ الأهل والاصدقاء، من ذوى الثراء والنعمة، ثم أخذ اشفاقهم يفتر، وأخذ عطفهم يتلاشى وأخذت صلتهم به تزول شيئًا فشيئًا بحسب ما تتضمنه نفوسهم من عوامل الوفاء قوة وضعفًا، ثم زال كله بمرور الزمن، وذلك أن مرضه طال وابتلى جسده - كما يقول الإمام ابن كثير - بأنواع من البلاء، وطال مرضه حتى عافه الجليس، وأوحش منه الأنيس، وانقطع عنه الناس.

يقول رسول الله صلى الله عليه وسلم، فيما رواه عن ابن أبى حاتم: أن نبى الله أيوب لبث به بلاؤه ثمانى عشرة سنة، فرفضه القريب والبعيد، إلا رجلين من اخوانه كانا من أخلص إخوانه له، كانا يغدوان إليه

ويروحان، فقال أحدهما لصاحبه:

تعلم والله لقد أذنب أيوب ذنبًا ما أذنبه أحد من الصالحين.

قال صاحبه: وما ذاك؟

قال: منذ ثمانى عشرة سنة لم يرحمه ربه فيكشف ما به.

فلما راحا إليه لم يصبر الرجل على ذكر ذلك له.

فقال أيوب: لا أدرى ما تقول، غير أن الله عز وجل يعلم أنى كنت أمر على الرجلين يتنازعان فيذكران الله فأرجع إلى بيتى فأكفر عنهما، كراهية أن يذكر إلا فى حق.

ومعنى ذلك أن أيوب عليه السلام وصلت به شفقته على الناس، ووصل به تقديسه لله سبحانه وتعالى إلى درجة أنه كان حين يسمع رجلًا يقسم بالله على أمر من الأمور يذهب إلى بيته فيخرج كفارة اليمين إشفاقا على الرجل أن يكون قد حلف كذبا، وتقديسًا لله أن يقسم به على زور دون أن يكفر عن القسم.

- وقد كان أيوب عليه السلام يتحلى بصفات جامعة.

منها: أنه كان لا يبيت قط ليلة وهو شبعان مع علمه بمكان جائع.

ومنها ما أخبر به من أنه لم يكن قط له قمصان وهو يعلم بمكان عار.

ومنها الصفة التى ذكرها القرآن الكريم مثنيا عليه بها وهى أنه أواب.

والأواب هو الذى يرجع إلى الله سبحانه وتعالى فى جميع أوقاته.. يرجع إليه بالحمد على نعمه وآلائه ويرجع إليه بالتفكر فى جميل صنعه، والتدبر فى بديع آياته ويرجع إليه بالذكر حتى يكون لسانه دائمًا رطبًا بذكر الله.

- وقد كان أيوب عليه السلام فى عنفوان محنته وفى شدة ابتلائه ذاكرًا لله سبحانه وتعالى، عالمًا أن ما به إنما هو نعمة من الله يسديها له.

يقول الإمام ابن كثير مصورًا مرض أيوب:

لم يبق منه عضو سليم سوى قلبه ولسانه، يذكر الله عز وجل، وهو فى ذلك كله صابر محتسب ذاكر لله عز وجل فى ليله ونهاره، وصباحه ومسائه.

يقول الله تعالى:

﴿ونبلوكم بالشر والخير فتنة﴾.

ويقول رسولنا صلوات الله وسلامه عليه: أشد الناس بلاء الأنبياء ثم الصالحون ثم الأمثل فالأمثل.

ويزيد رسولنا صلى الله عليه وسلم موضوع الابتلاء وضوحًا فيقول:

يبتلى الرجل على حسب دينه، فإن كان فى دينه صلابة زيد فى بلائه.

وهذا الابتلاء إنما هو اختبار وامتحان من الله، وهو عادة يتمخض عند الصادقين عن رضا من الله سبحانه يغمر الصابر المحتسب، وعن رحمة من الله سبحانه تحيط بمن نجح فى الاختبار وتكون التجليات الإلهية والآلاء

الربانية، وتكون السعادة العظمى.

- ولقد نجح أيوب فى الاختبار فكشف الله ما به من ضر.

وينكشف ابتلاء أيوب عن قصة من أجل قصص الوفاء عن قصة للوفاء لا تكاد تجد لها مثيلاً فى خلال التاريخ شرقيه وغربيه، إنها قصه وفاء زوجته.

لقد لازمته هذه الزوجة الكريمة ملازمة تامة، وكانت الوحيدة التى حنت عليه طيلة ابتلائه، فقد كانت تقدر حق الزوجية كل التقدير، وتقوم بواجبها خير قيام، إنها تذوقت معه السعادة فى أيام نعمته، وهاهى ذى تتوفر بكل جهدها عليه فى أيام ابتلائه، لقد أخذت تدبر أمر المعيشة له ولها بكل وسيلة شريفة حتى اضطرتها الظروف فى النهاية إلى أن تعمل عند ذوى النعمة فخدمت بعد أن كانت مخدومة، وترددت على الأثرياء بعد أن كان قصرها يزدحم بالمترددين عليها، وكان الناس يشفقون عليها فيستخدمونها حتى ولو لم يكونوا فى حاجة إلى خدمة، من أجل أن يعطوها القليل الذى يسد جوعها وجوع زوجها.

- ومع ذلك فإن القضاء لم ينته فى أمرها وأمر زوجها إلى هذا الحد فحسب، فقد ترددت اشاعة فى جميع الارجاء أن من يستخدم امرأة أيوب ربما ناله من بلائه، وحل عليه من شقائه، وترددت على الأبواب فلم تفتح الأبواب لها، وبحثت عن عمل فلم تجد، وطوت هى وزوجها اليوم، وباتا جائعين وفى جوارهما القصور والنعيم، وبالقرب منها ذوو الثراء من

الأقارب والأباعد، وفكرت هذه السيدة وأطالت التفكير، فكرت فى أمر الخروج من هذا المأزق المفاجئ، ومن هذه الشدة الجديدة، وكانت ذات شعر طويل جميل، فرأت وهى فى محنتها أن لا حاجة لها بهذا الشعر، وماذا تصنع به وحياتها وحياة زوجها على أبواب النهاية.

- يقول الإمام ابن كثير: فلما لم تجد من يستخدمها عمدت فباعت لبعض بنات الاشراف احدى ضفيرتيها، بطعام طيب كثير فأتت به أيوب فقال:

من أين لك هذا؟ وأنكره.

فقالت: خدمت به أناسا، فلما كان الغد لم تجد أحدا فباعت الضفيرة الأخرى بطعام فأتته به، فأنكر أيضا وحلف لا يأكله حتى تخبره من أين لها هذا الطعام، فكشفت عن رأسها خمارها، فلما رأى رأسها محلوقا قال فى دعائه:

﴿رب إنى مسنى الضر وأنت أرحم الراحمين﴾.

- ولعل أيوب عليه السلام لم يقلها من أجل نفسه، وإنما قالها من أجل زوجته من أجل وفائها.. من أجل اخلاصها، من أجل الجميل الذى أسدته.

واستجاب الله للنداء، وهو الذى يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء، وعادت الحياة باسمة: فيها الثراء وفيها النعمة، وفيها ذكريات

للوفاء وللصبر وشعور غامر برضوان من الله ومحبة منه سبحانه.

يروى أنه حينما دعا بدعائه أوحى الله إليه: قد رددت عليك أهلك ومالك ومثلهم معهم، فاغتسل بهذا الماء فإن فيه شفاءك، وقرب عن صحابتك قربانا، واستغفر لهم فإنهم قد عصونى فيك.